

الهوية في الفكر العربي المعاصر

د. فاتح مصطفى نصر¹

الملخص:

لعب المأزق الحضاري الذي وقع فيه العقل العربي على جميع المستويات الفكرية دائماً دور المعطل لقيام أي مشروع نهضة، الذي من شأنه أن يعزز دور الذات العربية أمام التحديات التي تواجهها من الآخر الغربي، حيث ظهرت اليوم الحاجة الملحة لإنشاء مشروع نهضوي عربي مشترك، بين مختلف الدول العربية التي يجمعها فكر أو قومية أو ثقافة أو ديانة واحدة؛ لأن التحولات الحاصلة اليوم على خارطة السياسة العربية والعالمية، من شأنها أن تخلق البيئة المناسبة للتفكير جدياً في العمل الجماعي بين تلك الدول، وذلك من أجل العمل على مشروع فكري مختلف عن الإرهاصات الأولى كما صاغها مفكرو الفكر العربي المعاصر منذ منتصف القرن العشرين إلى نهايته، خاصةً ذلك المشروع الذي صيغ منذ حوالي العقود الأربعة الماضية تحديداً، والمتمثل في فكر طه عبد الرحمان ومالك بن نبي ومحمد أركون والجابري وحسن حنفي ونصر حامد أبو زيد.. وغيرهم، الذي ساهم في طرح العديد من الإشكالات الفكرية التي اعترضت قيام أي مشروع نهضوي معاصر للعقل العربي، والذي يمكننا من خلاله أن نؤسس لحقبة فكرية وسياسية واجتماعية قادمة مختلفة، فالمشروع النهضوي العربي القائم على تعزيز دور الهوية والذات العربيين، هو ما يمثل في النهاية خارطة الطريق التي يمكننا مبدئياً من الخروج بـ عدد عقود طويلة من ذلك المأزق

¹ - عضو هيئة تدريس - كلية الآداب - جامعة طرابلس - ليبيا.

الحضاري، لاسيما بعد أن نتمكن أولاً من تحقيق هدف البناء كأحد أسمى أهداف التغيير المنشود، ثم الانطلاق منه إلى تطبيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وتحقيق التنمية المستقلة.

المقدمة:

برز البحث في مفهوم الهوية في الدراسات العربية والإسلامية المعاصرة، نتيجة لتبلور مواقف فكرية معينة من هذه الدراسات، والتي تمخضت في مجملها عن نقد العقل العربي والموروث الفكري الخاص به، حيث تكونت الدلالات الفكرية المركبة لمفهوم النقد وآلياته؛ خاصة تلك التي وظفت هذا المفهوم في المؤلفات العربية المغربية لبناء أيديولوجية معينة حول الموقف من التراث، كعامل رئيس وفعال لدراسة الإشكال التاريخي والحضاري لقضية الهوية والمتعلق بتكوين ونقد العقل العربي المعاصر، فنجد كتابات بعض المفكرين المغاربة أمثال: الجابري وأركون وعبد الله العروي، تظهر إسهاماتهم في صياغة مواقف مختلفة من قضية الهوية، في ضوء ما يُعتقد أنه مهم لصياغة وتشكيل الفكر، فنرى الجابري مثلاً يُركز على المجال السياسي والثقافي في الفكر المغربي العربي، حيث يحاول الانخراط في معظم القضايا التي تُثار بصورة متلاحقة في الخطاب العربي المعاصر خاصة فيما يتعلق بقضية الهوية .

في حين نجد نظيره أركون يولي للتجديد المنهجي في الكتابات العربية أولوية كبرى لدراسة وقراءة التراث العربي الإسلامي، كمحاولة منه لتفكيك أصوله بالنقد والتحليل والمقارنة الإبيستيمولوجية، بحيث لا يخفي انخراطه في معترك الحداثة ونظام الفكر المعاصر، ويحاول محاصرة التراث فكرياً ليتمكن من تقليص هيمنته على العقل العربي الإسلامي، ويظهر هذا الأمر جلياً في نقده للعقلانية التي صاغها الفيلسوف العربي ابن رشد، كمحاكاة فكرية لحل مشاكلنا والتحديات التي تواجهنا، على اعتبارها نموذج خاص بظروف زمنها التي أقيمت من

أجلها، كما نلتمس قضية الهوية في تاريخانية عبد الله العروي من خلال دفاعه عن ضرورة الاستفادة من درس الحداثة الغربي، استشهداً بما شهدته العقل العربي والإسلامي خلال العهدين الأموي والعباسي، من إبداع في جميع المجالات الفكرية علمية وأدبية، والذي اعتبره نتيجةً منطقيةً لتطبيق النموذج الفكري المنفتح وليس لاعتبارات أخرى، خاصةً وأن الفكر تكوين نفسي واجتماعي ليس ذا صيغ جامدة، وإنما نتيجة تراكمية لنشاط بشري يزداد عمقاً بتلاقي وتلاقح الحضارات.

* - قضية الهوية بين التعريب والتغريب.

من المتفق عليه أن إعطاء مفهوم محدد لقضية الهوية مازال يمثل إشكالاً لدى جميع التيارات والاتجاهات الفكرية العربية المعاصرة، لاختلاف دلالاتها باختلاف المفكرين وانتماءاتهم الفكرية، حيث غالباً ما ارتبطت مفاهيم الهوية عند المفكر العربي والإسلامي بإشكال الأصالة والمعاصرة، أو بما يرادف هذه الثنائية من مصطلحات أخرى، كالتراث والحداثة و الأنا والآخر... الخ ، وذلك بالنظر إلى السياق التاريخي الذي يكشف عن التفوق الغربي في جميع المجالات الفكرية والسياسية والاقتصادية، مع وجود هوة فكرية بينه وبين الفكر العربي الإسلامي المعاصر، كما وُجد أساس لقضية النهضة لدى رواد النهضة العربية أمثال: الطهطاوي وقاسم أمين ومحمد عبده والكواكبي وآخرين، ممن تأثروا بفكر ومنهج الحضارة الغربية الحديثة، ويلاحظ أن قضية الهوية قد تحذر من مفهوم النهضة إثر الانقلاب الفكري الذي صاحب مراحل الاستقلال والتحرر العربي عقب الحرب العالمية الثانية، ونهوض حركات التحرر الوطنية العربية والبحث عن مخرجٍ لحل مأزق التفاوت الحضاري بيننا وبين الغرب، وبمفهوم أدق محاولة الانفكاك من تغليب هوية الآخر على هوية الأنا، حيث تردد السؤال عن من نحن وما يشكل هويتنا؟، الذي ظل يبحث عن إجابات تضاربت في اختيار النموذج المناسب الذي يمكن من خلاله تحديد ملامح الهوية العربية، بنقد النماذج

الغربية الحديثة والأخذ بالنموذج العربي الإسلامي، أو بنقد لهذا الأخير وتبني نموذج غربي، وإما بتطعيم النموذجين كلاهما بالآخر واستنساخ نموذج ثالث بما يتوافق مع واقعنا وثقافتنا العربية.

من هنا جاءت الآراء حول قضية الهوية كموقف أيديولوجي تتنوع فيه دلالات تلك القضية حسب تنوع المواقف منها، فهناك مجموعة من المعايير النظرية التي تحكم قراءة هذه القضية، استناداً إلى تحليل مسألتها التطور والتبعية، لذلك نجد أن هاتين المسألتين قد أخذتا طريقين متباينين:

الأولى هي التي تُكرّس عملية التطور التاريخي بمنأى عن التأثير بفكر الآخر، حيث ترى أن في هذه العملية مخاطر فكرية على التراث بمعناه الواسع، وعلى فكرنا المعاصر والمستقبلي أيضاً، خصوصاً وأننا نلعب دور المتلقي في عملية التطور تلك، لذلك ترى أن الأصالة تمثّل حقيقي للهوية العربية الإسلامية، في مقابل الطريق الثانية التي وجدت في الامتزاج بثقافة الآخر طريقاً للحاق بالحضارة الغربية المعاصرة فتتجلى الهوية عنده بناءً على جدلية هذا الامتزاج، أي في الحدود التي ترسمها الهوية لنفسها ضمن إطاره.

ويبدو أن أغلب التيارات الفكرية الحديثة والمعاصرة قد وظفت قضية الهوية توظيفاً أيديولوجياً حسب انتماءاتها الفكرية، فلا يمكن اعتبار أن التنبّه لهذه القضية كان وليد عوامل داخلية فقط سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية، بل يمكن الأخذ بالعوامل الخارجية المتمثلة في قوة الغرب والتوسع الرأسمالي، كعوامل مهمة في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية، غير أن هذه العوامل تتجلى في اتجاهين مختلفين:-

- **الأول:** في صورة استعمارية نفعية ذات نزعة احتكارية مهيمنة.
- **الثاني:** يمثل العَصْرنة بكل ما تحتويه من قيم الحداثة، لذلك فالمواقف من الهوية تداخل فيها ميكانيزم النهضة الذي قوامه الرجوع إلى الأصول للانطلاق منها إلى المستقبل،

مع ميكانيزم الدفاع الذي قوامه الاحتماء بالماضي، (الجابري، 1990م ص 27)، فهي إذن تسعى للاتصال بالآخر كحلقة وصل بينها وبين قيام النهضة والحفاظ على الموروث من جهة أخرى ككيان يُشكل هويتها بخلق حالة انفصال بينها وبين الآخر الذي يختلف في هويته عنه .

من هنا كانت إشكالية الهوية تتمظهر في ازدواجية الاتصال والانفصال للفكر العربي والإسلامي، وهي ليست عملية حفظ علي التراث فقط، أو الدفاع عنه ضد ثقافة الآخر، بل أيضاً من أجل دعم الحاضر بالنسبة لنا وتأكيد فاعليته للانطلاق نحو المستقبل، وعليه انطبعت صورة الهوية بتلك الثنائية علي جميع مستويات الفكر غير أن بعض الباحثين كمحمد عابد الجابري رأى فيها اختراقاً للهوية وخطراً يهدد بنيتنا الفكرية، نظراً لخصوصية هذه الهوية في الوعي العربي الإسلامي مما دعا البعض الآخر للدعوة إلى إعادة توظيف التراث فكرياً لبث الروح في مسألة الهوية من خلاله، الذي من شأنه خلق أيديولوجيا نهوضية للتراث تسمح بإعادة النظر في الوعي الحاضر بالماضي لاحتوائه بمناهج عقلية نقدية.

لعل نهاية القرن التاسع عشر التي تؤرخ لبداية التوسع الاستعماري على الأمة العربية في جميع مظاهره وتجلياته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية... الخ، هي الحقبة التي نبهت العقل العربي للبحث في إشكال الهوية خاصة بعد أن اصطدمت بنموذج النهضة الغربي المتقدم مقارنة بالركود الفكري للعقل العربي، الأمر الذي أدى لانقسام الوعي تجاه حل ذلك الإشكال إلى قسمين:

الأول- الوعي القائم على الاغتراب تجاه الأنا، ذو نزعة استلاب أو نزوع نحو فكر الآخر ومنهجه.

الثاني- الوعي المؤسس على الاغتراب تجاه الآخر، فيحاول قراءة التراث العربي الإسلامي بما تقتضيه إمكانياته القاصرة على احتوائه من جديد.

فهذان النوعان من الاغتراب هما اللذان يحددان العلاقة بين الأنا والآخر في شكل التفاعل الحضاري بينهما وليس على التبعية والتعددية فقط، كما أن الموقف الراهن في أزمة الفكر العربي والإسلامي هو الذي نبّه لإشكال الهوية داخل منظومة هذا الفكر، وجعلها تتخذ مظاهر عدة تنوعت حسب الفكر الذي شكلها، فهناك مثلاً خصوصية البناء الاجتماعي والسياسي للأمة العربية كان له الأثر الكبير في تعقيد مسألة الهوية، بدءاً بالحركات السياسية وانتهاءً بظهور الأقليات الدينية الإثنية بعد حركات التحرر على المستوى العام للأمة العربية، التي أثرت أيضاً في الوعي بالهوية، انطلاقاً من انبعاث الوعي الطائفي لها، ولما كانت حركة التتابع لنهضة أي أمة تستلزم الانطلاق من الأصول أخذاً أو رداً، فإن أصول الوعي الطائفي ليست واحدة، وعليه اختلف الوعي بالهوية ضمن إطار أصول تلك الأقليات داخل الأمة، مما يكشف عن عملية صراع كيان- إن جاز التعبير- بحيث يصبح الوعي بالهوية أمراً معقداً ناهيك عن الانقسام السياسي الذي يؤثر سلباً علي مركزية الأمة المتمثلة في النهضة والوحدة والهوية... الخ، بتحويلها إلى انتكاسات على صعيد الوعي والفكر؛ بالإضافة إلى ما تقدم إذا نظرنا لإشكال الهوية من زاوية النحن فإننا نكتشف وجود خطاب تنظيري يختلف في محدداته ومنطلقاته، فنحن نوظف هذا الإشكال بناءً على وجود قوالب فكرية جاهزة توظف كما هي، (أي بالمضمون نفسه الذي تحمله عن الواقع الذي استخلصت منه أول مرة... وهكذا فبدل أن تخضع هي لعملية تطويع مع واقعنا يعمد المصنّف بالعكس من ذلك إلي تطويع الواقع العربي وتفصيله- في ذهنه - بالصورة التي يجعل ذلك الواقع يقبل التأطير داخلها، (الجابري، 1990م، ص31)، لذا فتحليل الواقع لم

يتم إلا انطلاقاً من معطيات واقع آخر بإسقاط مفاهيمه وأيديولوجيته الأساسية عليه، ومن ثم إسقاط هويته كذلك.

إن من الشائع فكرياً اعتبار الهوية في عُرف الحضارة العربية الإسلامية تكمن في ثوابت الإسلام القابلة للتجديد وليس للتغيير، فهي تفصح عن ذاتها في صورة الوعاء الفكري كالأحكام والشرائع... الخ، دون أن تتخلى عن دورها في دعم البنية الفكرية العامة، فهي بمثابة البصمة التي تميزها عن غيرها من الهويات، كما يبدو أن الواحدية الفكرية قد تؤدي إلى النفي والصراع؛ لأن العلاقة مع الآخر في ظل هذه الواحدية ستنزح إلى التضاد بين الأنا الحضاري والآخر الحضاري فيكون الصراع هو طابع العلاقة، من حيث المحافظة على الخصوصيات الأيديولوجية المكونة لهما، فيؤدي ذلك إلى نفي الآخر، ولعل هذا ما تركزت حوله قضية الهوية العربية الإسلامية في علاقتها الحضارية مع فكر ذلك الآخر، حين كثرت الأسئلة حول أساسيات تلك العلاقة ومستقبلها، ويتوجب علينا التنويه إلى أن هذه القضية لم تكن ظاهرة علي المجال الفكر العربي قديماً، كالعلاقة التي قامت مع الحضارات الأخرى من فارسية وإغريقية وغيرها وإنما هي السمة الغالبة عليه منذ عصر النهضة وذلك لتبني فكر الآخر نزعة الصراع كقانون عام يحكم العلاقة ما بين الأحياء، فكان صراع البقاء في الفلسفة الداروينية والصراع الطبقي في الماركسية وفي العلاقة مع الحضارات الأخرى، (عمارة، 1990م ص44)، وكنتيجة لتقشي تلك النزعة في فكرنا المعاصر، أصبح لها انعكاس ظاهر في قضية نفي الآخر، للبحث عن منافس لثقافته تَمثل في ثقافة ذات حضور وثقل على اللاوعي التاريخي والوعي الحاضر، كمن في إحياء الهوية داخل الإطار العام لمشروع النهضة العربية الإسلامية، بالكشف عن المعطيات الأيديولوجية لها، ضمن إطار مجالات التراث الفكرية، ونحن اليوم مطالبون حسب تقديري بإعادة النظر في المفاهيم والرؤى والمناهج التي توجه فكرنا المعاصر، إثر محاولة تأطير الحاضر فكرياً على

غرار الماضي، وبالتالي النظر إلي المستقبل بتوجيه من مراحل اجتراح التراث بشكل متعاقب.

ويمكن القول أن ما يحدد ملامح هويتنا هو الثقافة الفكرية المدمجة في التراث، والحق إن ثقافتنا الراهنة محكومة بالآخر وتابعة له بقدر ما هي محكومة وتابعة لثقافتنا القديمة وأعني تراثنا العربي الإسلامي، ونحن نعتقد أن التحرر من التبعية للآخر لن تتم إلا من خلال العمل من أجل التحرر من التبعية للماضي ماضينا نحن، (الجابري، 1990م ص43)، كما لا يعني ذلك أيضاً إلغاء التراث والاستلاب لثقافة الآخر، أو التحرر من سلطة الآخر الفكرية بالتفوق على ذاتنا ورفض كل مقومات العصر والحداثة، فهذا كله يتعلق بإشكال مختلف يتعلق بالبحث في موقفنا نحن من ذلك كله، وبمدى وعينا بهويتنا العربية الإسلامية وينقلنا إلى المستوى الذي يجعل من وعي المثقف العربي متصلاً بحاضره وبمشروع مستقبله، بحيث يتلاشى الإحساس بالانفصال عن الذات، من أجل تدشين مشروع الهوية، الذي تتجلى فيه الذات والعقل العربيان داخل منظومة الوعي المعرفية العامة.

* - مشروع الهوية في الفكر العربي.

من الطبيعي أن يكون منتصف القرن التاسع عشر هو الحقبة التي تكون فيها وعي المثقف العربي والإسلامي بأهمية بعث مشروع الهوية، خاصة بعد تراكمات التخلف والانغلاق الفكري قرونًا عدة، حيث كان البحث فيها متزامناً مع عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية، داخل مسار الفكر العربي النهوضي العام، وإذا نظرنا لمنطق الصيرورة التاريخية للخطاب النهوضي الحديث نجده يعبر عن قضية الهوية المتشكلة في الذات العربية الإسلامية نتيجةً لشعورها بالاغتراب عن موضوعها المتمثل في التراث من ناحية، وعن العصرية بكل ما تحويه من مقومات الحاضر من ناحية أخرى، فخصوصية هذه القضية لا يمكن إدراكها إلا بالوقوف عند الأزمة الفكرية لوعي المفكر العربي بالماضي والحاضر، وهي

خصوصية ساهمت كثيراً في بلورة فكر النهضة في الذهن العربي، وإماطة اللثام عن وجه واقع الاغتراب حتى يومنا هذا، ولقد ساهمت الثورة الصناعية الحديثة مساهمةً فعالة في تطوير المجتمع الغربي، وأذنت ببداية الفكر الاستعماري منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وبهذا تم إدراج المنطقة العربية والإسلامية ضمن النظام الغربي- من الناحية السياسية على الأقل- هذا الإدراج الذي مهد له منذ حملة نابليون الفرنسية 1798م-1801م، على المنطقة العربية، وانتهاءً بتقاسم الدول الاستعمارية للتركة العثمانية، والذي سُيِّس فيه الفكر العربي الإسلامي على أسس التبعية بمختلف أوجهها، حيث تطورت التناقضات التي عجز بها الواقع العربي والإسلامي عن استبداد وظلم وتخلف، لتتساقط وتتخلق اللحظة التاريخية للفكر علي هيئة سؤال الهوية داخل الأمة، ولعل شعور التبعية هو شعور تمخض عن واقع فقدان الوعي بالهوية وعن فقدان دعم التراث الحضاري له أيضاً؛ لذلك فالوعي هنا ليس هو وعي نخب فقط بل وعي شعب عام، (برقاوي، 1998م ص149)، حيث عكست كثير من التيارات الفكرية من ليبراليةٍ ودينيةٍ وشيوعيةٍ وقوميةٍ....الخ، وجه تلك التبعية واستجابةً للنمط التاريخي والسياسي لهذه التيارات تكونت السياقات الفكرية كتعبير عن واقع جديد تطورت آلياته بناءً علي خطابٍ إصلاحٍ أو تطوري تميز به الخطاب الديني، إلي جانب خطاب سياسي سعي إلى تطوير النظام السياسي للأمة، بالإضافة إلي الخطاب القومي الذي اهتم باستحضار قضايا الهوية، ومحاولة البحث عن سُبُل الانفكاك من قيود التبعية.

هكذا اتخذت الأيدولوجيا العربية الإسلامية منحاً مختلفاً حسب رؤى أنواع الخطاب المتقدمة، ومتخذةً كذلك دلالات مختلفة، حتى إننا لا نجد لدى المثقف العربي اتفاقاً واحداً لمفهوم التبعية، وذلك لتعدد المنطلقات والأهداف التي حُدد من أجلها ذلك المفهوم، فتاريخ الفكر العربي الإسلامي وتاريخ الفكر الغربي مرتبطان بتاريخنا ونابغان من

القضايا التي وضعتها مختلف الظروف التاريخية سياسية، اجتماعية، اقتصادية، ثقافية أمام فكرنا وثقافتنا كتطور طبيعي بين الماضي والحاضر.

إن تشخيص الواقع العربي يقتضي عادة النظر في دلالات المفاهيم والأدوات المنهجية والفكرية المطبقة فيه بل وبتنويرها كلياً، إذ تبين عجزها عن تفسير واقعنا الراهن، ولعل ربط مفهوم التبعية بالنسق الغربي ونهجه الاستعماري جعل النظر للتبعية يوصف بكونه عاملاً أساسياً لإحداث تغييرات جذرية تستهدف مجموعة من البناءات والتكوينات الفكرية، ويعدّ ذلك المسوّغ التاريخي لبحث الفكر العربي والإسلامي عن هويته ضمن حدود تلك التغييرات، فالتيار الديني أثناء توظيفه لقضية الهوية يرفض التبعية بتأثير من العلاقة الضدية لمعالجة الإسلام السياسي لهذه القضية، خاصة في خمسينيات وستينيات القرن الماضي بمصر، حيث لم يتمكن التيار الديني من إحداث ثقل تقدمية فكرية، بل اعتبرت الدعوة بالعودة إلى الأصول والتراث عنده دعوة تقدمية بدوافعها، رجعية في مناهجها وأسلوبها، أما التيار الليبرالي الذي تمسك أنصاره بتطبيق النسق الغربي، فلم يكن أكثر نجاعة من سابقه، لإغفالهم الدور الحضاري الذي لعبه الفكر الغربي على حياة ثورات وانقلابات اجتماعية وثقافية وحتى اقتصادية، والتي لم يتم إحداثها داخل منظومة الفكر العربي والإسلامي حتى الآن، ومنذ عقود سعى المثقف العربي إلى تفعيل دوره في تاريخ الفكر المعاصر، بربط الوعي بالهوية بمقومات الصراع الأيديولوجي بين تلك التيارات، الأمر الذي ساهم في خلق طور جديد من الانقسام الفكري في الثقافات المطروحة أمامنا إلى ثقافة وطنية وأخرى مستوردة، ومن ثم فكر موروث وفكر وافد، غير أن البعض لا يرى في الطابع التاريخي للفكر الوافد تعارضاً كبيراً مع مكونات الهوية؛ من حيث أن ذلك الفكر ليس نتاجاً غربياً خالصاً وإنما هو حصيلة الوعي الإنساني أجمع، بما في ذلك الوعي الفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للحضارة العربية الإسلامية في الحقبة القروسطية، إذ إنها

ساهمت بشكل كبير في بلورته وتحويله من طور الجمود الداخلي إلى طور التحرر والانفتاح على فكر الأمم الأخرى.

تأسيساً على ماتقدم يمكننا اعتبار الصراع الفكري الذي صاحب قضية الهوية، من أهم الأسباب التي جعلت الخطاب العربي والإسلامي يتأرجح بين قضيتي الاستقلال والتبعية، حيث كان في معظمه مركزاً على قضية الاستقلال السياسي فقط، في حين أن التبعية ظلت ملازمة لقضايا الفكر والثقافة الأخرى، إلى أن سلط بعض الباحثين اهتمامهم عليها بالبحث كمالك بن نبي وجلال أمين و... غيرهم، ممن حاولوا ربط قضية الهوية بمنحيين مختلفين، أحدهما له صلة بالدين والمنظومة الأخلاقية، والآخر له علاقة باللغة، وذلك ضمن الإطار الذي حدده هؤلاء في دراسة قضايا الفكر العربي، ومحاولة أسلمة قضاياها بشكل عام، وعلى صعيد جدلية الواقع والفكر في الخطاب الديني الحديث، نرى ذينك المنحيين مسئولين بشكل مباشر عن طرح النقاش حول قضايا الدين والدولة والحداثة والقومية والنهضة والعلاقة مع الآخر.. الخ، على اعتبار أن قضية الهوية التي أحدثها الخطاب العربي الحديث والمعاصر لم تكن وليدة لظروف سياسية أو اجتماعية أو دينية فقط، بل مؤسسة أيضاً على مجموعة من المحددات المنهجية والابستمولوجية لذلك الخطاب، ومنذ بداية التواصل مع الفكر الغربي من واقع المغلوب المولع بتقليد الغالب - بتعبير ابن خلدون - والعقل العربي يبحث عن انتماءات حضارية خُددت ملامحها على هيئة تساؤلات مثل: ماذا يمكننا أن نأخذ من ثقافة الآخر؟ وما الأصل وما الوافد وكيف يتم تحديدهما؟، وكيف نكون نحن أنفسنا وما السبيل لتحقيق ذاتنا وهويتنا؟، لذا اعتاد الخطاب العربي الإسلامي أن يثير مثل تلك التساؤلات منذ عقود طويلة وبصورة جزئية أو كلية كلما تعرض لنكسة فكرية، ثم إن البحث عن الذات خارج نموذجنا قد أدى بالمتقف العربي إلى الاستهانة بوحدة شخصية الأمة العربية في جو من الدعاية المجنونة لأنماط مستوردة وتابعة، وآل ذلك إلى السقوط والضياع والتخلف وسيادة

مفاهيم التنظيم القطعي الذي يستند إلى أمجاد من التطور السطحي... يُكرّس حالةً من التبعية والتخلف، (الملحم، 1996 م ص 18)، ولعل هذا ما أصاب العقل العربي بحالة من عدم التوازن في ظل البحث عن الذات والهوية خارج نموذج الفكر العربي الإسلامي، وتنوع النماذج الغربية من اشتراكية ورأسمالية تهيمن على الخطاب المعرفي العام، الأمر الذي أدى ببعض النزعات الفكرية الفلسفية إلى الظهور تحت تأثير من تلك النماذج الغربية، لذا نراها تتفاعل معها فتستنسخها تارةً أو ترفضها تارةً أخرى، لتتكون في النهاية نزعات اتباعية حديثة تنتمي إلى فكر هجين من قريب أو بعيد، وتختلط مع معطيات التجربة العربية فكرياً وفلسفياً، تمثّل في مجملها أيديولوجياً المشروع النهضوي العربي الإسلامي، والذي حاول رسم الملامح النهائية لقضية الهوية، وعليه صُنفت تلك النزعات الفكرية والفلسفية إلى تيار ديني تقليدي وسلفي، وتيار ليبرالي وتيار تقدمي.. فيها اتجاهات تشتمل على الاتجاهات الليبرالي العلماني والراديكالي الاشتراكي في بعض الأحيان والاتجاه الإسلامي الإصلاحي والاتجاه الإسلامي الرجعي، والاتجاه العروبي العلماني والقومي والاتجاه العروبي الإسلامي، (خضر، 1996 م ص 47)، لكن يبدو أن ما اشتهر من تلك التيارات قد أُختزل تحت مسمى نزعتين رئيسيتين هما:

- **نزعة تقليدية** ذات اتجاهات أصولية تنشد التراث وتصل إلى حد تمجيد إتباعه.
 - **نزعة تجديدية** معاصرة تنتمي لفكر تطوري في اتجاهه العام، ويحاول رسم ملامح قضية الهوية حسب الفكر الذي تدعو له وحسب قبولها من عدمه لفكر الآخر.
- لذلك كان الفكر التنويري الذي ساد مشروع النهضة العربية الحديث والمعاصر، متذبذباً بين فكر هذا وذاك فنزاع أحياناً إلى تعريب الهوية، ويربط مقوماتها الأساسية بالمكونات التاريخية والفلسفية للفكر العربي التقليدي، ثم ينزع أحياناً أخرى إلى تغريب الهوية، باستدعاء الفكر الغربي في جميع تجلياته ضمن إطار الحداثة وما بعد الحداثة في

محاولة لزوج الفكر العربي الإسلامي في ثقافة وفكر الآخر، عن طريق أدلجة بعض نزعاته الفكرية على غرار ما أنتجته التيارات الغربية، وعليه أصبح الخطاب العربي والإسلامي هو الآخر يعاني من انقسامية في الانتماء والهوية ظلت تلازمه منذ بداية العصر الحديث حتى يومنا هذا، يتضح ذلك في القراءات التي يقدمها لدراسة العقلانية العربية الإسلامية، على اختلاف انتماءاتها الإيديولوجية التي تحاول البحث عن المجال المناسب الذي يمكن أن تتموضع فيه قضية الهوية داخل الخطاب، سواء أكان خطاباً عربياً إسلامياً أم غربياً، كما تسعى للإجابة عن سؤال الهوية الذي طرح نفسه على العقل العربي فيما إذا كانت الهوية وجهاً آخر للتراث أو أنها تختلف عنه؟، ولم عجزنا عن توارث الهوية العربية كجزء من التراث رغم توارثنا له؟، ومن الطبيعي أن تتعمق إشكالية البحث في هذه المسألة كجزء من الإشكالية الكبرى الأصالة والمعاصرة، خاصة في ظل ما سُمي بالمركزية الحضارية ضمن المشروع العولمي المعاصر للفكر العربي، ومحاولة تزوير الهويات داخل بوتقة تلك المركزية الحضارية ومحاولة إخضاع فكر الأنا والنحن لفكر الآخر، ولعل احد مظاهر هذا الإخضاع يتمثل في زحزحة الثقة التي يتبناها فكر الآخر في المناهج والأنساق الفكرية والمنظومات المعرفية للفكر العربي، واللافت للنظر أن عملية الزحزحة هذه كانت السبب الرئيسي وراء الانقسامية التي يعانيها العقل العربي حول قضية الهوية، مما جعل كثير من المفكرين يتسلحون بالفكر النقدي للتعامل مع الذات ومع الآخر بوعي وموضوعية، لخلق مساحة من النضج الفكري تحاول تحديد الهوية بناءً على البحث فيه معرفياً، وذو أبعاد فلسفية تسعى لتأكيد ذاتيتها وخصوصيتها، ويبدو أن ذلك ما حاولت تطبيقه التيارات الفكرية العربية أثناء إجابتها عن السؤال المطروح حول: من نحن وما هويتنا؟ لذا جاءت الإجابات حسب متطلباتها الفكرية وتركيباتها الأيديولوجية وأحياناً بناءً على مصالحها، وبرزت أنموذجات وميول فلسفية وعربية معاصرة وحديثة تحمل دهشتها بمعطيات الغرب

ونزعته العلمية والإنسانية، سواء أبحثت عنها في بعض معطيات التجربة التراثية العربية الإسلامية، أم التحقت بمشروعات الغرب الفلسفية المتكاثرة واكتفت بتأسيس خطاب فلسفي تابع، (خضر، 1996م ص50)، من هنا كان الخطاب العربي المعاصر خطاباً يدعو لتأصيل الذات أو الهوية العربيتين انطلاقاً من مقاربات الفكر العربي في قراءته النقدية للتراث، بحيث يكون السؤال عن الهوية والوعي بالذات سؤالاً مشروعاً يُفسر النزعة النقدية في دراسة العقل العربي بتجلياته المتعددة والمعقدة، إذا أردنا أن نتخلص من التبعية الفكرية التي فرضتها المرجعية الغربية على فكرنا، وبناء وعي فكري يعتمد على التراكم الثقافي وقراءة جديدة للتاريخ والتراث العربيين، ووفقاً للعقلانية المعاصرة التي تتبنى النقد كنقطة تحول لاختزال خطاب عربي إسلامي مختلف في تكوينه الفكري، وبناء لهذا الطرح كان هم المفكر العربي الربط بين الفكر والواقع على اعتبار أن هناك هُوةً تجعل من كلاهما مناقضاً للآخر، يعكس ذلك التخوف من دمج الواقع العربي بكيّيته ضمن إطار فكرٍ مبرمجٍ ما تطرحه التيارات المتزاحمة على صعيد الواقع، مما يؤثر في حضور التراث في الوعي العربي الحاضر والتخوف أيضاً من انفصال عن التراث دون العودة والاتصال به، بعكس ما حدث مع الغرب وتراثه بانفصال عنه ثم اتصال نتيجة لافتقار العقل العربي لميكانيزم يُحدد عملية الانفصال والاتصال على غرار الغرب، الذي ارتكز في ذلك على نقد مكونات الفكر الوسيط وأدواته المعرفية التي كانت تستبعد الحس والعقل، وخصوصاً العقل بمعناه الجديد وتعتمد منهجية تبني الموروث الفكري... وقد أدى هذا إلى إظهار تهافت المرتكزات الفكرية اللاهوتية والنظرية العلمية المرتبطة بها، (زيادة، 1987م ص23)، ويبدو أن العقل العربي في حاجة ماسة لمثل ذلك الميكانيزم حتى نتمكن من تقديم سياق فكري مستقل وبمعزل عن التيارات الفكرية المتصارعة دون أي إطار أيديولوجي يحدد هُويتها الفكرية، فالتيار الديني مثلاً دعا لتثبيت واعتماد الهوية الدينية فقط

، وكواجهة ثقافية حذرة من ثقافة الآخر ليظل سجين الذات الغائبة - الحاضرة، ويرى د. محمد عابد الجابري أن سؤال الهوية كان ولا يزال يطرح مجموعة من الثنائيات كالإسلام \ العروبة، الدين \ الدولة ، الأصالة \ المعاصرة ، الوحدة \ التجزئة ... الخ، والتي ناقشت في مجملها قضية الهوية انطلاقاً مما تقدمه تلك الثنائيات من إشكالات، (الجابري، 1990م ص ص 102-103)، حيث يظل سؤال الهوية الجهة التي يتوقف عندها الخطاب العربي الإسلامي كسؤال يفترض تحقيق الذات العربية، وكعامل رئيس في بعث الأمة من جديد، وكأن سؤال الهوية هو ضالة الخطاب العربي الذي يحاول الإجابة عنه، خاصة في ظل غياب الذات أمام حضور الآخر.

ويعانى الخطاب العربي قلقاً فكرياً تجاه قضية نفي الذات العربية أو إلغائها وتحويلها إلى مجرد موضوع لفكر الآخر، مما جعلها عاجزة عن خلق ذاتها بذاتها أو حتى التواصل مع الآخر كإمكانية فكرية ، لذلك نرى المشروع الإصلاحى الدينى في منظومة الفكر العربي والإسلامي يحاول سد الثغرة الفكرية الموجودة على نطاق الحوار مع الذات ومع الآخر، من خلال الارتقاء بالمنظومة المعرفية في ذلك الحوار إلى مستوى المراجعة النقدية للتراث العربي الإسلامي، وإعادة النظر في مشروع الوعي العربي بفكره.

فيشكل خطاب الهوية جزءاً من الوعي الفكري للأمة، ويستدعى ذلك الانفتاح الفكري كشرط من شروط النهضة والتنوير العربيين، فهي تحاول ابتداع طريقة لعقلنة الدين والتراث واللغة وحتى العروبة أيضاً، بل إنها تطابق ما بين العروبة والإسلام وبين اللغة والعروبة، لتتنوع في النهاية الأيديولوجيات إلى: سلفية- راديكالية-، تعمل ضمن حدود النص المطلق الذي له عالمه الخاص وهويته الفريدة، ثم هناك الأيديولوجيا القومية التي تبحث عن فردوسها المفقود وأقصده به الذات القومية، التي تتعدد تجلياتها حسب موقفها من الدين والسياسة، أما

الأيدولوجيا الماركسية العربية الحديثة فقد كان لها موقف آخر من قضية الهوية التي ارتسمت ملامحها على هيئة جدلية الصراع القومي والاجتماعي داخل طبقات الحياة المدنية.

الخاتمة:

يطرح إذن مشروع النهضة والتنوير قضية الهوية في الخطاب العربي المعاصر، بناءً على الصيرورة التاريخية للفكر العربي-الإسلامي، التي تتعامل مع الوقائع والأحداث والعلاقات على أساس من الوعي بالتراث الذي يفترض الوعي بالذات كذلك، لذا فهذا الخطاب يحاول الحوار مع الأنا خارج النص القديم الذي ورثته عن الذات دون أن تتفصل عنه، ويحاول أيضاً عقلنة ذلك الخطاب على قدر وعي العقل العربي بمشروع النهضة، الذي تحول فيه الجدل الفكري إلى البحث في تطابق الذات مع وعيها لإشكالات الواقع التي تواجهها؛ بالإضافة إلى البحث عن الهوية التي تستدعي مجابهة طرائق الحداثة بتكبد تعميم أنموذجها الفكري على حساب النماذج الفكرية الأخرى.

قائمة المصادر والمراجع :

- 1- الجابري، محمد عابد: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1990م، ص27.
2. - عمارة، محمد: أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، دار الشرق الأوسط للنشر، الكتاب 5، القاهرة- مصر، د.ط، 1990م، ص44.
- 3- برقاي، أحمد نسيم: مقدمة في التنوير - العلمانية، الدولة، الحرية، دار معد للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1998م، ص149.
- 4- الملحم، إسماعيل: الخصوصية في الثقافة القومية العربية - دور الإنتاجية والإبداع، اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، ط1، 1996م، ص18.

5- خضر، مصطفى: الحداثة كسؤال هوية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1996م، ص47

6- زيادة، معن: "معالم على طريق تحديث الفكر العربي"، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 115، أيلول 1987م، ص23.